

## المستشرق توماس ارنولد والتحول في الدراسات الاستشراقية كتاب ((الدعوة الى الاسلام))

أ.م. د. ناصر عبد الرزاق الملا جاسم  
جامعة الموصل - كلية الآداب - قسم التاريخ

### المقدمة

ان المتتبع لمسيرة الاستشراق البريطاني يجد انها قد عاشت انعطافا خطيرا مع اواخر القرن التاسع عشر والعقود الاولى من القرن العشرين تمثل بالسعي لبلورة منظور جديد لفهم الشرق والاسلام بعيدا عن الأنماط الذهنية الغربية السائدة . ومبعث ذلك الادوار الجديدة التي حتم على بريطانيا أن تلعبها مع تنامي مصالحها الاستعمارية وتوسع وجودها في قارتي اسيا وافريقيا، وانعكاس هذه الادوار على النشاط الاستشراقي الذي هو نتاج تلك الادوار بقدر كونه مفعلا ومحددا لها الى حد كبير .

ولعل اصدق تجسد لهذا التحول يتمثل بمسيرة المستشرق البريطاني البارز السير توماس ارنولد الذي عبر من خلال تنوع ادواره في التدريس والتأليف والعمل الاستشاري عن ذلك اصدق تعبير؛ فكان نتاجا وصانعا لذلك المسار الجديد في الوقت نفسه. ويعد كتابه (الدعوة الى الاسلام) الذي نشر للمرة الاولى عام ١٨٩٦ من اول الارهاصات لهذا التحول ودافعا قويا له في الوقت نفسه.

ومن جانب اخر فان توماس ارنولد يكاد يكون اشهر المستشرقين البريطانيين قاطبة في العالمين العربي والاسلامي ، وان كتابه المذكور قد حاز القدر المعلى بين الكتابات الاستشراقية ، لكن ذلك للأسف لم يدفع باحثينا العرب والمسلمين الى المضي لما هو ابعد من مجرد الاستشهاد بآرائه والالتكاء عليها في مواجهة اراء مستشرقين اخرين اختاروا التحزب ضد الاسلام ومعتقداته ، نقول ان باحثينا العرب والمسلمين لم يسعوا الى دراسة ظاهرة متميزة بكل ما في الكلمة من معنى هي ظاهرة التحول الخطير الذي اسهم المستشرق توماس ارنولد في احداثه في الاستشراق البريطاني على وجه التحديد ، من خلال الاخذ به الى فضاءات ومواقف واشكاليات لم يعهدها سابقا، علاوة على بناء مفاهيم فكرية ومؤسسية رسختها الاجيال التالية من طلبته، وخلقت تيارا له ثقله في البحث الاستشراقي الاوربي والبريطاني على حد سواء .

وفي المعالجة الآتية يتوخى الباحث ، بعد ان سبق له ان سبر بمعية قسيمة له التقاليد التي اسس لها ارنولد ومن تحدر من سلالته الفكرية، في دراسة موضوع النظرية السياسية الاسلامية في مدرسة

الدراسات الاستشراقية (والافريقية) في جامعة لندن بعد التحاقه بها عام ١٩٢٢، كما تجسدت من خلال كتابه الشهير (الخلافة) المنشور عام ١٩٢٤<sup>(١)</sup>، يتوخى في هذا البحث المضي الى مغاور ابعد لم يسبق له تناولها ... سعيًا الى لاستقصاء كيفية تبلور مواقف المستشرق ارنولد من الاسلام والمسلمين عبر محطات سيرته الاسبق بين سني الدراسة في كمبردج أو التدريس في الهند حتى تاريخ اصداره كتابه (الدعوة الى الاسلام) عام ١٨٩٦ ، بهدف رصد فحوى التحول الذي أحدثه ارنولد في الاستشراق البريطاني من خلال هذا الكتاب ، وما نتج عنه من ردود فعل على مستوى من احقنهم أو اطربهم هذا الموقف .

### النشأة والتكوين

ولد توماس ارنولد في ديفونبورت قرب لندن عام ١٨٦٤ لوالد كان يعمل في تجارة الحديد وكانت أسرته شديدة التدين والتقشف تنتمي الى مذهب ديني تزهدي عرف بالمخالفين (The Non-Conformists) ويعد من بين اكثر التيارات المتطرفة في تزماتها في العصر الفيكتوري بسبب رفضه الانضواء تحت الكنيسة الانكليكانية الانكليزية<sup>(٢)</sup>. امضى ارنولد دراسته المبكرة في لندن ؛عاصمة الإمبراطورية البريطانية حيث حصل على البكالوريا في مدرسة مدينة لندن، ثم استهوته الدراسات الكلاسيكية ، فقصده كمبردج ليدرس في كلية مجدولين عام ١٨٨٣. لكنه انتقل وهو في كمبردج صوب الدراسات الشرقية ، فدرس اللغات الشرقية ولاسيما السنسكريتية والعربية.<sup>(٣)</sup>

بدءً ، توقف عدد ممن تناول سيرة ارنولد امام النواة الاولى لتشكل شخصية ارنولد وهي الاسرة ، فيسجل حفيدا ارنولد في نص بالغ الاهمية ، إن ارنولد ثار على موقف الاسرة التزمي الانعزالي منذ فترة مبكرة من حياته، ومضى في طريق النقد والتشكيك بمعطيات المسيحية الكنسية وتوجه صوب المفهوم الاخلاقي والروحي السامي للدين، وكان ذلك دافعا في تشكل موقفه من الاسلام بعد انتقاله الى الهند واحتكاكه بالمسلمين احتكاكا مباشرا .<sup>(٤)</sup>

من جانب اخر ان انتماء ارنولد الى اسرة من الطبقة المتوسطة تعيش في احد الموانئ ، وترتبط مهنة والده وجده من قبله، بتوفير مستلزمات السفن البحرية البريطانية ولد لديه رغبة مبكرة أن يصبح بحارا وأبقى لديه اهتماما دائما بالبحرية البريطانية وتأريخها.<sup>(٥)</sup> ونحن نعرف ان البحرية البريطانية هي اساس قوة الامبراطورية وذراعها الضارب في كل بقعة امتدت اليها سيطرتها. وهي كذلك الممثلة للروح التجارية البريطانية عبر البحار. ومن الواضح ان الانتماء الى اسرة تتعامل بالتجارة ، وفقا لحفيديه، قد جعله اكثر قدرة على التماهي مع المسلمين مما لو كان يتحدر من اسرة كنسية او لاهوتية او حتى ارسنقراطية.<sup>(٦)</sup>

وفي كمبردج درس ارنولد اللغات الكلاسيكية حتى السنة الثالثة ، لكنه تحول الى الدراسات الشرقية بفعل تأثير استاذيه ادوارد بايلس كوويل ووليم روبرتسون سميث (١٨٤٦-١٨٩٤) ، ويبدو ان تأثير الاخير كان كبيرا جدا فقد استهوى ارنولد فيه عنفوانه في الانعتاق من الاسار التقليدية للمنظور الفكري الكنسي ، فقد شق هذا المستشرق طريقه الخاص في دراسة الكتاب المقدس، مما اسهم في اغضاب المؤسسات الدينية والاكاديمية البريطانية لاسيما عندما بدأ ينقل الى بريطانيا خلاصات الابحاث الالمانية في دراسة الكتاب المقدس التي لمع فيها المستشرق الشهير يوليوس فلهاوزن<sup>(٧)</sup> ، والتي عرفت باسم النقد العالي (High Criticism). فحاول ان يدفع بأفكار هذا التيار الفكري الاوربي الصاعد الى عالم الدراسات التوراتية البريطانية متحملا في سبيل ذلك النقد القاسي الذي بلغ درجة محاكمة السلطات الكنسية له بتهمة الهرطقة بفعل مقال كتبه في الموسوعة البريطانية عن الكتاب المقدس انكر فيه اصالة وقدسية نصه، والتي نتج عنها ان ابعده هذه السلطات التي تهمين على الدراسة اللاهوتية في عدد من الجامعات البريطانية، من منصبه استاذا لكرسي العبرية في جامعة ابردين في استكلندة. وسمح له بالمقابل، كما هو الحال بالنسبة لفلهاوزن ان يتوجه صوب الدراسات العربية التي لن تثير فيها نتائج ابحاثه استياء الكنيسة.<sup>(٨)</sup> وسنجد ان ارنولد قد وقف موقفا مماثلا عندما تحدى التصورات الاستشراقية التقليدية عن الاسلام، واسهم في احداث تحول مماثل في الاستشراق البريطاني ، وسلاحه ايضا -الى حد كبير - مقاربات الاستشراق الالمانى.<sup>(٩)</sup> كان مقررات الدراسات الاستشراقية في كمبردج -اسوة بسواها من المراكز التقليدية في دراسة الاستشراق- تركز غالبا على المنهج الفيلولوجي الذي يحصر همه بتدريس اللغات الشرقية ، فأبدى ارنولد استعدادا استثنائيا لاستيعاب هذا المنهج، فدرس طيفا واسعا من اللغات الكلاسيكية والشرقية ، فأجاد اليونانية والرومانية والسنسكريتية ولغة الاوردو علاوة على العربية والفارسية، وبضاف الى ذلك تمعنه في اللغات الاوربية الحديثة مثل الفرنسية والالمانية والاسبانية والبرتغالية والروسية والهولندية.<sup>(١٠)</sup>

وفي كمبردج ايضا وضعت بصمة مهمة اخرى في تشكل مواقف ارنولد من الاسلام والمسلمين الا وهي مصاحبته لشخصية تعلق بها ارنولد كثيرا هو المستشرق ادوارد كرانفيل براون (١٨٦٢-١٨٢٦) الذي سيصبح ابرز متخصص غربي بالدراسات الفارسية، وسيكون كتابه (التاريخ الادبي لفارس) اشهر اثر استشراقي في هذا الحقل لعقود طويلة من الزمن.<sup>(١١)</sup>

ان اول واهم مسالة تجسدت امام ارنولد ان براون، وعلى الضد من السواد الاعظم من المستشرقين البريطانيين في ذلك العصر، كان من اوائل من دخل الاستشراق من خارج السلك

الكهنوتي . لان من المعروف ان اغلب المختصين بالدراسات الاستشراقية في القرون السابقة كانوا من رجال الكنيسة، ممن تمرسوا باللغات الشرقية التي كتبت بها النصوص المقدسة اليهودية والمسيحية مثل العبرية والسريانية والارامية، وانهم انتقلوا لدراسة العربية ومن ثم الاسلام ، بهدف تطوير فهمهم لهذه النصوص، فدراسة الشرق ، واللغات الشرقية على وجه التحديد ، انما تستهدف ،غالبا ،اضافة عناصر جديدة لفهم النص الاصيلي للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، الذي كتب-غالبا- باللغات الشرقية القديمة. (١٢) ولا غرو ان هذا المنظور قد جعل تناولهم للإسلام والشرق متأثر الى حد كبير بالتراث التقليدي من العداء والتحيز الديني. اما براون فكان قد درس الطب في كمبردج، لكنه توجه للعناية باللغات الشرقية ولاسيما اللغة الفارسية، وكتب عدة مؤلفات في مجالات مختلفة من بينها كتابه (الطب العربي). (١٣)

الا ان التأثير الحقيقي لبراون على ارنولد هو موقفه من الشعوب الشرقية وادانته للمفاهيم البريطانية السائدة تجاه الشرق وتأكيده على تفوق الحضارة الشرقية والاسلامية على الحضارة الغربية في مظاهر متنوعة، فوفقا للمختص بالدراسات الهندية كريستوفر بايللي أن براون قد شاطر ارنولد في قناعته بان الأديان الشرقية تتفوق في عدة جوانب على المسيحية. (١٤) وينطلق براون من هذا الموقف الى التعاطف مع الشعوب الشرقية وادانة المواقف الغربية التي اصطبغت بنظرة استعلائية استعمارية تجاهها . ولعل ابرز تجسد لموقف براون هو في كتابه (سنة امضيها بين الفرس) الذي نشره عام ١٨٩٣ تحدث فيه بتعاطف عن ايران وشعبها والجهل الغربي السائد بشأنها ، وما تركه هذا الجهل، برأيه، من روح عدائية غير مبررة (١٥). ومن الثابت ان احدا لم يناظر براون في مواقفه المتعاطفة مع الاسلام والمسلمين من ابناء جيله الا ارنولد. (١٦) وقد سجل ارنولد صلته الوثيقة وتأثره بشخص صديقه براون في مناسبات عديدة كان من بينها توليه تحرير الكتاب التذكاري الذي اهدي الى براون بمناسبة بلوغه الستين والمعنون (مجلد في الدراسات الشرقية مهدى الى الاستاذ ادوارد كرانفيل براون)، الى جانب تلميذ براون المقرب وخليفته في كمبردج المستشرق رينالد نيكلسون ، ومما جاء في التقديم الذي كتبه ارنولد مخاطبا براون :

" لقد الهمت، لسنوات، احيال متعاقبة من الطلبة بحماسك الشخصي للأدب والثقافة الاسلامية. وقد استقرت كتاباتك الاهتمام بمجال دراساتك في كل بقاع العالم المتحضر . لقد ساهمت في توسيع المعرفة الانسانية، وان الأمل ليحدو كل اصدقائك ممن حملت امامهم المشعل ان تضيف اكثر الى كتاباتك البالغة القيمة بالنسبة لكل المتخصصين بالعالم الاسلامي". (١٧)

## الانتقال الى الهند

حصل ارنولد عام ١٨٨٨ ( اي قبل ان يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر ) على عرض للتدريس في الكلية المحمدية الانكليزية الشرقية في مدينة علي اكرة في الهند ، حيث اختاره مدير المدرسة ثيودور بيك لشغل منصب استاذ الفلسفة فيها . وهذه الكلية اهلية اسسها سيد احمد خان الشخصية الهندية الاسلامية المعروفة بعمق صلتها ببريطانيا . وكانت علي اكرة محطة مهمة جدا في سيرة ارنولد ، ومكث فيها نحو عقد من الزمن. وانتقل بعدها الى الكلية الحكومية في لاهور وعاش فيها اجواء مختلفة عن تلك التي قضاها في علي اكرة . وكانت محطة اخرى لصياغة تصوراته عن الشرق والاسلام. وقد مكث في هذه الكلية لنحو ست سنوات ، عاد بعدها الى بريطانيا عام ١٩٠٤.<sup>(١٨)</sup>

كانت تجربة الهند بالنسبة لأرنولد من اهم مراحل حياته وصقل شخصيته وتبلور موقفه المستقل من الاسلام والمسلمين ، وفيها ايضا الف كتابه ((الدعوة الى الاسلام)) محور بحثنا هذا .  
فبالنسبة لكلية علي اكرة، فكما يفيد صاحب ابرز دراسة غربية كتبت عنها الاستاذ الدكتور ديفيد ليليفيلد بقوله : ان مؤسس المدرسة السيد احمد خان كان مؤمنا بان الوجود البريطاني في الهند يمكن ان يوظف لمصلحة المسلمين فيها من خلال اتخاذ البريطانيين قوة تقف امام هيمنة الهندوس العديدة على المسلمين ، وبالمقابل ان توفير التعليم البريطاني للمسلمين الهنود سيمكنهم من الارتقاء ودخول الخدمة الحكومية ولعب دور فعال في تحديد مصائر بلادهم.<sup>(١٩)</sup> فقد تبدى للسيد احمد خان، اثر زيارته لبريطانيا بين عامي ١٨٦٩ - ١٨٧٠ ان نظام التعليم البريطاني هو اساس الإنجازات والقوة البريطانية ، الامر الذي حفزه للعمل على زرع خصائصه الضرورية في البيئة الهندية.<sup>(٢٠)</sup>  
وكانت الكلية المحمدية الانكليزية الشرقية في علي اكرة إنجازاً وتتويجا لهذا الهدف، ولاسيما مع اشتراطه ان يكون كادرها التدريسي الاوربي حصرا من خريجي اعرق جامعتين في بريطانيا اي اوكسفورد وكمبردج . وبالمقابل فإنه لم يتصورها مدرسة غربية خالصة وانما ارادها، وكما تعكس تسميتها ، انكليزية-محمدية -شرقية. أي لابد من عدم قطع صلتها بجذورها الشرقية الاسلامية من خلال التزامها بالتعليم البريطاني من جهة والالتزام بالعقيدة والتراث الاسلامي من جهة اخرى، فكلا الامرين، برأي خان ،يمكنان المسلمين من اكتساب المؤهلات للاشتراك في الحكم وتذويب التصورات والتحيزات المسبقة المتبادلة البريطانية والإسلامية . وتقديم نموذج تربوي فريد من نوعه يعبر عن احتياجات المرحلة التي يعيشها عموم المسلمين.<sup>(٢١)</sup>

ولكن مشروع سيد احمد خان التغريبي لم يكن يمضي دون نقد، فليس اندفاعه غير المحسوب صوب التعليم الاجنبي هو وحده ما أثار في وجهه النقد وانما تعزز ذلك بما قدمه من تفسيرات غير مألوفة للكثير من المعتقدات الاسلامية ، تلك التفسيرات التي احققت الكثير من علماء الدين في عصره ومن جاء بعدهم. ولعل اهم الدراسات التي ناقشت افكار سيد احمد خان وما خلفتها من وردود الافعال كتاب كريستيان ترول الموسوم (السيد احمد خان: اعادة تفسير الفقه الاسلامي).<sup>(٢٢)</sup>

وقد وجد ارنولد نفسه عند وصوله الى علي اكرة في خضم بوتقة هذا الصراع، فتبنى الكثير من معطيات مشروع السيد احمد خان لكنه وعى ايضا قوة اعتراضات المسلمين عليه.

فقد تعلق الامر بصلته بسيد احمد خان، نجد انه منذ البدايات الأولى لوصوله الى الهند حدث هناك تقارب شخصي بين الرجلين . فقد نظر اليه خان بوصفه بريطانيا آخر ينظم الى الهيئة التدريسية التي يغلب عليها خريجي اوكسفورد وكمبرج ممن اراد لهم يصنعوا من علي اكرة جامعة على غرار جامعاتهم.<sup>(٢٣)</sup> أما ارنولد فلا ريب انه اخذ يتقهم المكانة المتميزة التي يتمتع بها خان لدى السلطات البريطانية في الهند، فعطف لا بل ساهم في دعم مشروعه التعليمي على النمط الغربي ، لكنه بدأ يتميز تدريجيا عن التيار الذي يمثلته بقية التدريسيين البريطانيين في الكلية ليميل صوب الجانب الاسلامي الذي وجد لديه الكثير مما يسعى اليه ويحله من قيم لاسيما بعد اتصاله بالعلامة المسلم شبلي النعماني<sup>(٢٤)</sup>، كما سيمر معنا.

لقد حقق ارنولد في مرحلة وجوده بالهند انفتاحا مباشرا وغير مسبوق على المشهد الديني والثقافي والاجتماعي الشرقي وظهر تعاطفا لا سابق له داخل الأوساط الاستشراقية البريطانية خلا ما قدمه زميله براون فيما يخص ايران. ومن المفارقة ان كلا من ارنولد وبراون حرصا على ارتداء الازياء الشرقية والنظر الى العلماء المسلمين بوصفهم رجال علم يجدر التواضع بين ايديهم لتلقي العلم لابل شاركا مشاركة اجتماعية ووجدانية في النشاطات الدينية الإسلامية. لكن اذا كانت تجربة براون الفعلية لم تتجاوز سنة واحدة امضاها مع الفرس فان ارنولد قد امضى اكثر من عشر سنوات بين طهراني المسلمين الهنود.

ويمكن التعقيب في هذا الشأن بما ذكره حفيده :

"لقد كان ارنولد على الفة اكبر مع المسلمين في علي اكرة من صحبة الجماعة البريطانية التي بدت بنظره متحجرة جامدة، وان تبنيه اللباس الاسلامي اثناء التدريس في علي اكرة يدل على شجاعة بالغة في الهند البريطانية في العقد الاخير من القرن التاسع عشر، [والكلام لحفيده] ونتساءل عن رد الفعل الذي خلقه سلوك كهذا في صفوف البريطانيين آنذاك" <sup>(٢٥)</sup>

لقد وجد ارنولد في علماء علي اكرة المسلمين معينا لبناء معرفة حقيقية عن الاسلام وتاريخه وحضارته ، بعيدا عما تعلمه من خلال كتابات المستشرقين في كمبردج . ولعل اكثر الامثلة وضوحا ما اشير اليه دائما من الصلة التي ربطته بالعلامة شبلي النعماني (١٨٥٧-١٩١٤) فقد ترك هذا العالم اثرا عميقا في شخص ارنولد حيث وجد لديه من المعرفة بالإسلام مالم يجده في بريطانيا. وبدأ يتوسع على يديه في فهم التاريخ الاسلامي واللغة العربية وآدابها ، وبالمقابل فأن ارنولد وجد انه يمتلك ما يمكن ان يقدمه لشبلي من السعي لتعليمه الفرنسية وتوفير المصادر الغربية التي تتناول مناهج البحث الغربي والفلسفة وكذلك اطلاعه على الكتابات الاستشراقية الاوربية.<sup>(٢٦)</sup>

وقد تعاون الرجلان في توجيه التدريس وفي ابحاثهما في مرحلة وجودهما في علي اكرة .لنتوج هذه العلاقة برحلة علمية عام ١٨٩٢ الى مصر وبلاد الشام وتركيا وغيرها من مناطق الشرق الاوسط . وقد وثق شبلي الرحلة في كتابه (سفرنامة العرب والعجم).<sup>(٢٧)</sup> ونظر سيد احمد خان الى هذه العلاقة بوصفها تجسيدا لآماله في التعاون والصداقة البريطانية الاسلامية .وانه قدم دعما عمليا لكلا الرجلين من خلال توفير المصادر لهما، ودعم نشر اعمالهما كما اقر بذلك ارنولد وشبلي في مقدمات اعمالهم<sup>(٢٨)</sup>. لكن، وكما تشير كاثرين وات في دراستها الضافية لتوماس ارنولد واعادة تقييمه للإسلام والحضارة الاسلامية ،ان شبلي قد اتجه بآرنولد صوب تفهم جديد مختلف للإسلام لم يعهده من سبقه من المستشرقين البريطانيين من خلال تبنيه التحليل التاريخي للدفاع عن الاسلام وتشديده على التسامح بوصفه مكون اصلي في الاسلام، وان كثير من هذه الافكار قد ابرزت بقوة في كتابه (الدعوة الى الاسلام).<sup>(٢٩)</sup>

وقد انعكست هذه العلاقة ايضا في مجال التدريس والصلة بالعلماء المسلمين والطلبة فلم يجد ارنولد ضيرا من الانفتاح على العلماء والطلبة الهنود ، اذ مضى تحت تأثير شبلي لتعميق اهتمام الطلبة بتاريخهم وحضارتهم وبعث العناية باللغة العربية والاوردية(وهي اللغة التي ستصبح لاحقا اللغة الرسمية لباكستان) والاهتمام بدراسة الشخصيات التاريخية الاسلامية من اجل بناء احساسهم بتاريخهم وبهويتهم بوصفهم جزء من المجتمع الإسلامي الاوسع<sup>(٣٠)</sup>.

لقد اراد ارنولد ان يغرس مثاليات وطنية عليا في طلابه، من خلال التحذير من التبعية المفرطة وغير المعقولة للغرب وعبادة الحضارة البريطانية، ودعا إلى ترك الموقف اليائس السائد بين الشباب الهنود نحو الإسلام والإصرار على عظمتهم سواء في الماضي أو الحاضر ، لذا يجب ان يمتلك الشباب الهنود شجاعة كبيرة للعمل من اجل المستقبل ملهمين بقدرة وامكانيات الاسلام.<sup>(٣١)</sup>

ولم يقتصر نشاط ارنولد وصلته بطلبته على قاعات الدرس وحدها، فقد نشط اجتماعيا بصورة وثقها من تصدى للكتابة عن ذلك العصر ، وفي مقدمتهم ليليفيلد ومن بعده كاثرين وات، ومن بين المسلمين اشتياق احمد زيللي(عميد اكااديمية شبلي)، فقد جرت الاشارة الى دور ارنولد في تأسيس جمعية باسم اخوان الصفا عام ١٨٩٠ التي كانت تعنى بالجانب الاخلاقي والعلمي عن طريق دعم التعليم المنهجي باطار ثقافي اوسع ومحتوى اخلاقي والنقاش. اراد ارنولد من هذه الجمعية ان تتيح له تقديم افكاره عن الإسلام بوصفه ، داعيا الى إعادة تقييم التاريخ الإسلامي<sup>(٣٢)</sup> تلك العملية التي الهمتها تجاربه في علي اكرة وانعكست ،كما سنرى في كتابه (الدعوة الى الاسلام) .

ومن جانب آخر ترأس ارنولد (لجنة الادب) وهو ناد اسسه شبلي لنشر اللغة العربية وتطوير مهارات الطلبة للكتابة والخطابة بها والانفتاح على الثقافة العربية والمشاركة في الكتابة في الصحف في البلاد العربية . ويبدو واضحا من خلال هذه النشاطات تأثير شبلي في انفتاح ارنولد على الاجواء الشرقية وفهم الحياة الشرقية كما هي وليس عبر النصوص التي قرأها في بريطانيا. وقد بدت له هذه النوادي بمثابة فرصة لتحقيق التوازن صوب تحييز المقررات الاكاديمية نحو اللغة والمواضيع الإنكليزية التي ارتبطت بالتعليم البريطاني<sup>(٣٣)</sup>.

وقد خلقت النشاطات السابقة علاقة وثيقة بين ارنولد وموضوعه وطلابه، وبدأ ارنولد تدريجيا يتحول الى مدافع متحمس عن الاسلام ومساهم نشط في أنشطة المسلمين الثقافية والاجتماعية ، الامر الذي اكسبه مكانة واحترام متميزين في الكلية، تجسد بشكل ملائم بكنيته بين الطلاب 'مولانا ارنولد' ، واراد هو بالمقابل ان يكون اقرب للجماعة الإسلامية في الكلية بدلاً من أن ينظر اليه كأحد الاساتذة الأوروبيين . ويمكن الاشارة كذلك الى مشاركته في النشاطات الدينية الإسلامية، اذ اعتاد حضور الافطار في شهر رمضان مع عدد من المدرسين والطلاب المختارين في كل سنة، وحثه الطلبة على اداء الفرائض الإسلامية مثل الصلاة ،مما دفع احفاد ارنولد الى القول بانه كان أشرف او كاد على اعتناق الاسلام<sup>(٣٤)</sup>.

### التدريس في لاهور

لكن هذه الادوار الغنية الحافلة تعرضت لنهاية غير متوقعة فوفاة سيد احمد خان عام ١٨٩٨ ومغادرة شبلي، افقدت ارنولد الرغبة في البقاء في علي اكرة ، فقبل منصبا تعليميا جديدا في الكلية الحكومية في لاهور في العام نفسه، وامضى في هذه الكلية ستة اعوام ليعود بعدها الى بريطانيا عام ١٩٠٤<sup>٣٥</sup>.



اختلفت سنوات ارنولد في الكلية الجديدة كثيرا عما كان عليه في علي اكرة، فقد انكمش نشاطه الاجتماعي كثيرا ، فمن الواضح انه وجد في لاهور بيئة لا تحوز على رضاه لأنه افتقد جماعة كبار العلماء المسلمين التي كانت تحفزه على الانغماس في المجتمع والثقافة الإسلامية التي توفرها بيئة علي اكرة . وكما قالت زوجته ، قلبه لم يكن في لاهور ، فإنه قد بقي في علي اكرة.<sup>(٣٦)</sup>

يبقى المَعْلَم البارز الوحيد المتبقي من تجربة ارنولد في لاهور صلته و تأثيره العميق في شخص شاعر الباكستان وفيلسوفها تلميذه محمد اقبال الذي ارتبط بارنولد بصداقة حميمة، فقد فتح ارنولد أمام إقبال أفقا واسعة للدراسة والبحث العلمي الغربي كما دفعه الى عالم الفلسفة الغربية. وقد سجل إقبال امتنانه الشديد لمواقف ارنولد معه حتى انه أهدى اليه رسالته الدكتوراه وأطلق عليه لقب (معلمي)<sup>(٣٧)</sup>. وحين رحل ارنولد من لاهور عائدا الى بريطانيا في عام ١٩٠٤ ودعه اقبال بقصيدة بعنوان نالا فراق (بكاء الفراق) اقر فيها بدين ارنولد في توسيع معارفه وطموحاته:

ان ذرة قلبي قد أخذت تبرق كالشمس  
ومرأتي المكسورة بدت تعكس الكون بمجمله  
يا اسـفـي من سيعرف بقائي من عدمه<sup>(٣٨)</sup>  
وشجرة طموحي هاهي باسقة  
ومن جانب آخر فان اقبال قد لعب بدوره دورا مهما في تعزيز التصورات التي تشكلت في ذهن ارنولد تجاه المسلم واحترام قيمه وتطلعاته المستقبلية . وستواصل الصلة بين الرجلين عندما ياتي اقبال الى بريطانيا ،حيث سيتولى ارنولد توجيهه للدراسة في كمبردج ،ومن ثم يدفعه الى الذهاب الى لنيل الدكتوراه في المانيا ،مما يعكس تواصل تأثر ارنولد بالدراسات الاكاديمية الالمانية كما سبق القول.

لكن تناول مرحلة لاهور وصلته باقبال يبقى خارج اطار بحثنا الذي يسعى -كما سبق القول - للحديث عن المنظور الاستشراقي الجديد الذي قدمه ارنولد في فهم الاسلام ومعالجته، كما تجسد في كتابه (الدعوة الى الاسلام)، والذي تبلورت افكاره ونصوصه وصيغته في علي اكرة وصدرت الطبعة الاولى منه عام ١٨٩٦.

ارنولد وكتاب الدعوة الى الإسلام

مما لا شك فيه ان كتاب (الدعوة الى الاسلام) مشروعا وافكارا انما يعود لمرحلة وجود المستشرق ارنولد في الكلية المحمدية في علي اكرة، فالكتاب نتاج طبيعي لتلك المرحلة، فيذكر صديقه المقرب السير مارك اوريل شتن : " بأن مفهوم الكتاب ككل يعود الى نشاطات ارنولد التربوية في الكلية "<sup>(٣٩)</sup>. كما انه لا يمكننا ان نغفل ، ونحن نتحدث عن هذه الفترة تحديدا، المساعدة البالغة التي حظى بها ارنولد من قبل السيد احمد خان الذي كان يمدّه بالكتب والمخطوطات اللازمة التي اعانته

على انجاز الكتاب وهو بعيد عن مكتبات اوربا. وهو الامر الذي ادهش من علق على هذا الكتاب لذ توقفوا مطولا امام ذلك الحجم الكبير من المصادر التي اعتمدها ارنولد في كتابه<sup>(٤١)</sup> . لا بل ان مساعدة السيد احمد خان تجاوزت ذلك ، فقد ساعده على نشر الكتاب ، كما وثق ذلك ارنولد نفسه في مقدمته<sup>(٤٢)</sup>.

يمكن القول بأن كتاب (الدعوة الى الإسلام) انما يمثل انعكاسا واقعيا للتحول في نظرة ارنولد الى الإسلام من المنظور الاستشراقي الاكاديمي التقليدي البريطاني الضيق صوب الرؤية الرحبة النابعة من التجربة الواقعية المعاشة والمنفتحة على المسلمين<sup>(٤٣)</sup> .

ومن اجل ايضاح التحول الذي أحدثه ارنولد يمكن ان نقارن بين التناول الاستشراقي التقليدي البريطاني الراسخ لموضوع انتشار الاسلام والمتجسد في كتابات المستشرق البريطاني الاشهر في ذلك العصر وليم ميور وبين المنظور الجديد الذي طرحه ارنولد. ومن المثير ان يعيش الرجلان (اي ميور وارنولد) تجربة الاقامة في البيئة الهندية والاحتكاك المباشر بالمسلمين الا ان تعامل كلا الرجلين مع هذه التجربة كان مختلفا سواء من زاوية السلوك او الفكر...

فالمستشرق وليم ميور ( ١٨١٩-١٩٠٥ ) من ابرز المستشرقين البريطانيين في القرن التاسع عشر ممن عنوا بدراسة السيرة النبوية والتاريخ الاسلامي في عدد من الكتب من بينها كتابه الضخم الشهير (حياة محمد) الذي صدر بين عامي ١٨٥٨-١٨٨١ بأربعة اجزاء. ويذكر له كذلك تناوله المفصل لمراحل التاريخ الاسلامي في كتبه ( الخلافة ظهورها واضمحلالها وسقوطها ) و ( حوليات الخلافة ) و ( دولة المماليك في مصر ) . علاوة على ذلك فقد كان ميور موظفا رفيع المنزلة في الادارة الاستعمارية البريطانية في الهند . وبعد تقاعده عام ١٨٧٦ اختير رئيسا لجامعة ادنبرة، وبقي يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٠٣ (اي قبيل وقاته بعامين) علاوة على رئاسته للجمعية الاسيوية الملكية التي كانت تعد ابرز موئل للبحث الاستشراقي في بريطانيا<sup>(٤٤)</sup>.

قلنا ان ميور كان عنصرا فاعلا في الادارة الاستعمارية البريطانية في الهند بين عامي ١٨٣٧ . علاوة على ذلك كانت له صلة وثيقة بالجمعيات التنصيرية البروتستانتية، التي محضها دعمه بصفته الرسمية من خلال الدعم الحكومي لنشاطاتها، وكذلك بصفته الشخصية عندما كتب عددا من الكتب في دعم الجهد التنصيري في الهند وتميزت نظريته الى المسلمين بطابع الاستعلاء والاستخفاف بهم وبالدين الاسلامي. ولعل احد ابرز الامثلة على ذلك علاقاته المتوترة مع سيد احمد خان وتشكيكه بجهوده في كلية علي اكرة<sup>(٤٥)</sup>

وعلى الضد من ذلك فان التجربة الهندية قد خلقت سلوكيات وانطباعات مغايرة لدى ارنولد كما سبق القول، فالاحتكاك مع المسلمين قاده للاعجاب بقيم المسلم ونظرته الى تاريخه وتطلعه الى المستقبل، واثارت بالمقابل امتعاضا كبيرا لديه من النشاطات التنصيرية البريطانية في الهند. فقد بدا له المنصرون الغربيون بعيدون غاية البعد عن القيم الحقيقية السامية للدين فهم -كما رأيهم- يظهرون الاستعلاء تجاه اصحاب الديانات والاجناس الاخرى، مما يخلق حاجزا حقيقيا بينهم وبين من توجهوا اليهم . وقد جاءت العديد من فقرات كتابه (الدعوة الى الاسلام) لتدلل على هذه الحقيقة ، لعل ابرز تعبير عن رأيه هذا مقارنته بين دور المبشر النصراني مقارنة بدور الداعية المسلم عند حديثه عن

### انتشار الاسلام في افريقيا:

"ان الداعي المسلم كان منذ اللحظة الاولى التي يعترف فيها المتحول الى الاسلام بالعقيدة ،يسير سيرا عمليا على المبادئ القائمة على اخاء المؤمنين جميعا وتساويهم امام الله، وهي مبادئ يشترك فيها الاسلام مع المسيحية ؛ غير ان هذا الداعي المسلم ، بصفة عامة ، اسرع واحسم في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يشعر في اغلب الاحيان بانه مضطر الى المطالبة بدليل قوي على اخلاص المنتصر قبل ان يضافحه مصافحة التآخي في المسيحية، والذي كان يثير دائما تعصبا جنسيا لم يكن محتملا ان يزول في جيل واحد ، حيث يعد المسيحي الابيض ،طوال اجيال ، سيدا، كما كان يعد الوثني الاسود عبدا... وفي الحق يظهر ان الاسلام لم يعامل الاسود قط على انه طبقة منحطة، كما كانت الحال ، لسوء الحظ ، في كثير من الاحيان، في العالم المسيحي"<sup>(٤٥)</sup> وقد توج ارنولد نقده للاتجاه الكنسي ومنظوره الاستشراقي حتى نص متأخر ، ففي المحاضرة الافتتاحية له في مدرسة الدراسات الشرقية في جامعة لندن ، كان أمله ان تكون المدرسة متحررة من التأثير الطاعني المضلل للحلقات الاكليريكية في الجامعات البريطانية التي تمنع من قيام بحث علمي مستقل.<sup>(٤٦)</sup>

ومما لاشك فيه ان للبيئة في علي اكرة دورها في هذا الموقف لاسيما اذا عرفنا بان السيد احمد خان ،الذي كان من اكثر المسلمين الهنود ميلا للمؤثرات البريطانية -كما تحدثنا سابقا- قد سبق له ان استشاط غضبا من تناول المستشرق ميور للسيرة النبوية وكتب كتابا تضمن مجموعة من المقالات لتفنيد آرائه ونشره عام ١٨٧٠.<sup>(٤٧)</sup>

واول مظهر الافتراق بين ميور وارنولد هو المقاربة التي ينطلق منها المؤلفان فتناول ميور للاسلام نابع من زاوية انجيلية تبشيرية معادية ، فالاسلام ، برأيه، هو ما حال دون انتشار وتثبيت النصرانية

في نفوس العرب وغيرهم من الشعوب الاسلامية. وانتشار الاسلام مدلوله عند ميور غالبا هو الحرب، والترويج لمقولات التحول القسري لسكان المناطق التي امتدت اليها السيطرة الاسلامية او اضطهاد من بقي على دينه السابق. اما ارنولد فينبه منذ الوهلة الاولى بان المنظور الجديد الذي يقدمه هو دراسة التسامح الاسلامي وليس الاضطهاد ، فالبحت ينصب على الجوانب السلمية التي خلص بأنها هي المظهر الاهم عند الحديث عن انتشار الإسلام، وان الصورة التقليدية عن المسلم الذي يحمل القرآن بيد والسيف بيد يجب ان يحل محلها صورة التجار والمتصوفة في ذلك.<sup>(٤٨)</sup>

اما ميور فان نظريته المتحاملة على الاسلام منعت من تفهم الجانب الدعوي السلمي لدعوة سيدنا محمد ( صلى الله عليه وسلم) فمن المفارقة ان نجده ينحاز منذ البداية الى صف المشركين من اهل مكة ويفضلهم على اتباع نبي موحد بما يماثل دور اليهود الذين وقفوا الى صف المشركين وزعموا ان دينهم احق من دين الاسلام ، فيزعم ميور ، في تعبير يجافي تماما الحقيقة ، :

" لقد شخصنا منذ وصول محمد [صلى الله عليه وسلم] الى المدينة حدوث تحول سريع في النظام الاسلامي ، اذ سرعان ما حلت روح عدم التسامح محل الحرية، والقوة بدل الاقناع. وباتت الاسلحة الروحية غير ذات نفع لبناء السلطة الدنيوية. لقد اكسب الاله الاعلى سيف الدولة قوة رهيبة، اما هذا السيف فقد رد بان حطم اعداء الله ، وضحي بهم على مذبح الدين الجديد. واكتسب الايمان طابعا تعصبيا قاسيا".<sup>(٤٩)</sup>

وما يمكن استخلاصه ان كراهية ميور دفعته لتصوير بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن ابدا رجل سلام منذ مغادرته لمكة اذ تملكت قلبه الكراهية لقريش، وبات حقه يتحين الفرص لينفجر ووجد نفسه بانه منفذ العقاب الالهي <sup>(٥٠)</sup>.

فكرس ارنولد نفسه للتصدي لهذه الطروحات فنجد في مواضع متعددة من كتابه يخصص ميور على وجه التحديد ويحرص على دحض تقولاته. وعلى قدر تعلق الامر بالنص الاخير نراه يقول:

"من الخطأ ان نفترض ان محمدا في المدينة طرح مهمة الداعي الى الاسلام المبلغ لتعاليمه، او انه عندما سيطر على جيش كبير يأتذر بأمره ، انقطع عن دعوة المشركين الى اعتناق الدين".<sup>(٥١)</sup>

ويسوق للتدليل على رايه أمثلة متعددة مستمدة من المصادر العربية الاولى عن جهوده ( صلى الله عليه وسلم) في دخول القبائل العربية للإسلام، ليخلص في النهاية الى نتيجة تناقض تماما ما طرحه ميور مفادها:

" لقد اذعنت القبائل العربية للنبي ، لا لمجرد انه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب ، بل انه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفا عديم التأثير... وكان قد افلح ان

يدخل في مجتمع عصره الذي كان مليئاً بالفوضى وسوء النظام شعوراً بالوحدة القومية وإدراكاً للحقوق والواجبات، كل نحو الآخر، على نحو لم يعرفه العرب من قبل<sup>٥٢</sup>

ومن بين أكثر ما تضمنه كتاب ارنولد تحدياً للتصورات التقليدية عن التاريخ الاسلامي نقله لنصوص عن المستشرق المجري كولدزيهر في كتابه الشهير دراسات محمدية حينما وصف اتباع النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بعد فتح مكة قوله:

" كان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين ،ورسل الاسلام فيما بعد، والاصفياء والاولياء على كل ما انوله الله للناس على محمد . لقد تغلغل في نفوسهم لدى ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير . هو الواقع اسمى وارقي مما افوه من قبل ،وانهم انتقلوا في الحقيقة الى حالة احسن مما كانوا عليه في جميع الوجوه"<sup>٥٣</sup>

ومن القضايا الاساسية التي حرص ارنولد على تفنيدها من بين طروحات ميور هو القول بعالمية الدعوة الاسلامية ، فقد ادعى ميور بان الاسلام لم يرتق الى رسالة النصرانية السامية الموجهة لكل البشر وان توجه المسلمين في رسالتهم للعالم كان عرضياً ووليد مرحلة لاحقة، فرد عليه ارنولد مثبتاً على وجه التخصيص اسمه(اي ميور) <sup>(٥٤)</sup>

ويتتبع ارنولد عبر كتابه مراحل انتشار الاسلام في عموم العالم القديم متخذاً المزج بين التاريخ والجغرافيا منطلقاً لمعالجته ، فيبدأ الباب الثالث للكتاب ( بعد التمهيد والحديث عن دور النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) بوصفه الداعية الاول للاسلام في البابين الاول والثاني)مع انتشار الاسلام في غرب اسيا في عهد الخلفاء الراشدين، ثم يتبعه بالحديث في البابين الرابع والخامس عن زحف الاسلام في افريقيا الشمالية وفي بلاد اسبانيا. ثم يتخطى الترتيب الزمني لينتقل الى العصر العثماني ليستعرض دور العثمانيين في نشر الاسلام في اوربا في الباب السادس، ثم يعود الى اسيا ليكرس الابواب السابع والثامن والتاسع والعاشر للحديث عن انتشار الاسلام في بلاد فارس واسيا الوسطى وفي صفوف المغول والهند والصين بالتعاقب. وينتقل بعد ذلك الى افريقيا ليصف ملامح انتشار الاسلام في ارجائها المختلفة في الباب الحادي عشر. ويرجع القهقري الى اسيا ليستعرض انتشار الاسلام في ارجبيل الملايو وصولاً الى الفلبين في الباب الثاني عشر.

وينتهي ارنولد كتابه بخاتمة كفيفة بان تصدم كلياً التقاليد الاستشراقية العدائية التي كان المستشرق ميور ومن هم على شاكلته من المدافعين عنها، اذ تحدث عن عوامل انتشار الاسلام في العالم بطريقة تعكس اعجاباً كبيراً ولا يتضح منها اي تعابير عدائية . ولعل الخاتمة جديرة كلها بالاقتباس لأهميتها لكننا سنكتفي بعبارة واحدة تحدث فيها عن الوجدانية التي جسدها الاسلام

" لقد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية ، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير ان نجد في غير الاسلام ما يفوق تلك المزايا، وان هذا الاخلاص كمبدأ الدين الاساسي ، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ بها هذا الدين والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذي يقومون بنشره اقتناعا يلهب حماسة وغيره<sup>(٥٥)</sup>

ومما لاشك فيه ان مشروع ارنولد قد لقي ترحيبا كبيرا من قبل المسلمين في علي اكرة، لاسيما وانه قد نشر مقاطع منه بالاوردية قبل نشره بالانكليزية في مجلة الكلية، وانه قام بقراءة مقاطع مختارة منه في المؤتمر التربوي الاسلامي في ديسمبر/كانون الأول ١٨٩٢<sup>٥٦</sup> وان السيد أحمد أعطاه توصية حارة لطرح افكاره في المؤتمر الدولي للمستشرقين عام ١٨٩٤<sup>(٥٧)</sup>.

ومما لاشك فيه ان طبيعة تقبل الاستشراق لهذه الطروحات قد تباينت وفقا لانتماء هذا المستشرق أو ذاك ، لكن كل من راجع الكتاب قد شعر بعمق المعالجة واتساعها في تناول انتشار الاسلام ضمن الاطارين التاريخي والجغرافي وغناها بالمعلومات والنصوص التي يقرأها البريطانيون للمرة الاولى.

وثمة زاويتان انتقد منهما الكتاب الزاوية التبشيرية والزاوية الاستشراقية التقليدية ، فقد كان ابرز منتقدي الكتاب المستشرق والمبشر الاسكتلندي الاصل دنكان بلاك مكدونالد (١٨٦٣-١٩٤٣) الذي غادر بلاده الى الولايات المتحدة عام ١٨٩٢ ليتولى التدريس في الحلقات الدينية التصيرية المتجهة الى الشرق ضمن ما يعرف باسم معهد هارتفورد التصيري في ولاية كونيتكت<sup>(٥٨)</sup> . وقد استفزه الكتاب ايما استفزاز لاسيما وان ارنولد قد صب -كما رأينا - جام نقده على المنصرين في الهند وان كتابه بمثابة رد قاس على فشلهم من خلال ابراز النجاحات التي احرزها الدعاة المسلمون في العالم بسبب من تقواهم وصدقهم وسلمية اساليبهم.

لقد كرس مكدونالد نحو ثمانين صفحات للرد على ارنولد، وهو حجم استثنائي بالنسبة للمراجعات النقدية، مما يعكس حجم التحدي والخطورة التي مثلها الكتاب لمكدونالد ومن هم على شاكلته من المنصرين والمستشرقين .

بدأ مكدونالد نقده بالإطراء على الكتاب لأنه نبه المستشرقين والمنصرين الى حجم اتساع انتشار الاسلام ، والى الثغرة الكبيرة في معلوماتهم عنه وعن وسائله في الانتشار، ويعترف بان الرؤية التقليدية السابقة عن الاسلام احادية الجانب ومضللة وموجهة بطريقة خاطئة<sup>(٥٩)</sup> وان كتاب ارنولد يمثل مرحلة حاسمة في تطور المعرفة بالاسلام ، لكنه يعود فيستدرك لكي لا يفهم منه مما لآفته لطروحات ارنولد بالقول: بان كتاب ارنولد يقف على الطرف الاخر كذلك في كونه احادي الرؤية

ومضلل وموجه بطريقة خاطئة. فمؤلفه لا يمتلك التدريب التاريخي المناسب اذ ان مشروعه فرض عليه ان يتعسف في عرض الحوادث ومن ثم على رؤيته للحقائق التاريخية . ويسوق سيل كبير من الاعتراضات على ما قدمه ارنولد.. وخلاصة رأيه في الكتاب انه لا يعرض الا جانباً واحداً من حقيقة انتشار الاسلام هو الجانب الدعوي بينما اغفل الجانب الاهم الذي هو جانب الحرب والاضطهاد الديني الذي مارسه المسلمون بحق ابناء الشعوب التي فرضوا عليها سلطانهم.<sup>(٦٠)</sup>

وفي الحقيقة ان ردود مكدونالد كلها انما هي تكرار للتصورات الاستشراقية التقليدية التي لم يستطع ان يتحرر منها حتى مع اقراره في مقدمة مراجعته باحاديثها وضلالها وعدم دقتها.

ويدافع مكدونالد، من جانب آخر دفاعاً مستميتاً عن العمل التنصيري وعن اخلاق المنصرين ويثير غضبه نص ارنولد المشار اليه اعلاه حول تباين تعامل كلا من المنصرين والدعاة المسلمين مع الافارقة السود. وتعليل مكدونالد لطابع الاستعلاء الذي مجّه ارنولد لدى المنصر ورفضه التماهي مع الافريقي الاسود، بانه تعبير عن التطور الحضاري الذي لم يتميز به الداعية المسلم الذي ينسجم فكراً مع بيئة متخلفة مثل افريقيا.<sup>(٦١)</sup>

ومن الزاوية الاستشراقية التقليدية يصدر المستشرق الالماني الاصل البريطاني الجنسية هارتويك هرشفيلد نقده لارنولد بالانحياز الى مدرسة ميور التقليدية لاسيما اذا عرفنا بان هذا النقد صدر عن مجلة الجمعية الاسيوية الملكية التي كان ميور رئيساً لها، والتي كانت معقلاً للتصورات الاستشراقية التقليدية ، فبالنسبة لهرشفيلد فان فهو يرجح ما ذكره ميور عن ان الاسلام لم يكن في مراحله الاولى ديناً عالمياً سامياً مقارنة بالنصرانية؛ وبرأيه، ان ارنولد قد اشتط الى حد كبير في السعي لتأكيد عالمية الرسالة الاسلامية . ويزعم هرشفيلد ان ما ذكره ارنولد عن الاساليب التي اتبعها محمد(صلى الله عليه وسلم) للدعوة الى دينه مثالي الى حد التطرف". وفي الحقيقة لا نكاد نستطيع ان نميز بين ما يذكره هرشفيلد هنا وما ذكره ميور ، فيدعي هرشفيلد ان لا اساس للحديث عن الجانب السلمي في سلوك النبي(صلى الله عليه وسلم) بعد انتقاله الى المدينة "فالسيف والخنجر هما اللذان هيمنوا وليس الانتشار السلمي للإسلام" . ويمضي هرشفيلد هو الآخر في تكرار المقولات الاستشراقية البالية حول اضطهاد الشعوب الخاضعة للإسلام، ونفي مقولة ارنولد حول الانتشار السلمي للعقيدة الاسلامية. وزعمه ان ما قاله ارنولد مبالغة كبيرة مبعثها الاعتماد المفرط على الروايات المشكوك في صحتها والمتحيزة دينياً على حساب تجاهل النصوص الموثقة<sup>(٦٢)</sup> وفي خلاصة حكم هرشفيلد على الكتاب انه لم يقدم شيئاً ملموساً الا في النظرة العامة لحجم انتشار الاسلام الان.<sup>(٦٣)</sup>

وعلى الطرف الاخر وقف المستشرق البريطاني ستانلي لين بول العروف بتعاطفه مع الاسلام واعجابه بالشخصيات التاريخية الاسلامية مرحبا بالكتاب ومثمنا عظم الجهد الذي بذله ارنولد للوصول الى مادة بحثية تتسم بالندرة والتشتت مما انتج حسب قوله " عملا علميا رفيعا انجزه ارنولد بنجاح منقطع النظير.. وفي المحصلة ان علينا تهنئة ارنولد على انتاج هذه المعالجة البالغة العلمية والشمول لموضوع معقد بصورة استثنائية".<sup>(٦٤)</sup> واذا كان لين بول يقر بوجود تعاطف ملحوظ في الكتاب مع الاسلام فانه يراه نتيجة طبيعية لروح التعصب والضلال المستشرية في صفوف الغربيين منذ زمن بعيد.<sup>(٦٥)</sup> ويبيد لين بول -نتيجة ذلك اتفاقه مع طروحات ارنولد وتأبيده لثيمته الرئيسة التي اكدت على الطابع الدعوي السلمي للدين الاسلامي، وروح الطمأنينة التي تمتع بها ابناء الديانات الاخرى في ظل الاسلام.<sup>(٦٦)</sup>

ومع الزمن بدأ التيار الذي مثله ارنولد بالنمو والاستقواء واخذت النظرة الجديدة تجد لها من يناصرها مع مضي الوقت ، لنجد محررا في مجلة كنسية بعد اربعين عاما من صدور الكتاب يكتب معلقا: "قد دحض ارنولد اخيرا الرؤية الخاطئة التي تعزو هذا الانتشار المدهش للاسلام الى السيف"<sup>٦٧</sup>

أما ارنولد فاذا كان قد غادر الهند جسدا عام ١٩٠٤ فانه بقي على تماس وثيق معها ، حيث عمل أولا في مكتبة وزارة الهند ، ومن ثم انتقل الى منصب المستشار التعليمي للطلبة الهنود الدارسين في بريطانيا وختم حياته بعد تقاعده عام ١٩٢٢ بالانتقال الى بناء مؤسسة علمية تجسد منظوره المستقل للاسلام وتاريخه وقيمه الا وهي مدرسة الدراسات الشرقية و(الافريقية) في جامعة لندن حيث كان مؤسس قسم الدراسات العربية فيها فكان عمله هذا بمثابة اختراق للأسار التقليدية للاستشراق البريطاني، وطوال عقد من الزمن تولى ارنولد توجيه الكلية الناشئة من خلال ترؤسه لقسم الدراسات العربية في الكلية المذكورة ،فوضع اسس جديدة للدراسات العربية في بريطانيا تتسجم مع التحديات الجديدة التي واجهتها بريطانيا ،وليصنع جيلا من الباحثين الذي تبنا فهمه الجديد للاستشراق في مقدمتهم تلميذه الابرز المستشرق هاملتون كب ، الذي اصبح في جانب مهم من سيرته ونشاطه الاكاديمي تدريسا وتاليفا امتدادا لاستاذه ارنولد .



## الهوامش

- ١- اشرف الباحث على رسالة دكتوراه بعنوان ( النظرية السياسية في دراسات المستشرقين البريطانيين) للطلالبة زاهدة محمد الشيخ طه تمت فيها معالجة تقاليد مدرسة الدراسات الشرقية (والافريقية) البريطانية في دراسة الفكر السياسي الاسلامي، والتي اسهم في تأسيسها المستشرق توماس ارنولد عندما شغل اول كرسي للعربية فيها منذ عام ١٩٢٢ ، اما في هذا البحث، فالمعالجة ستساق الى المرحلة الاسبق من حياة ارنولد اي المرحلة الهندية . وتتوقف عند تناول كتاب (الدعوة الى الاسلام) المنشور عام ١٨٩٦ ، فهي تهدف الى معالجة موضوعات مختلفة وتستند الى مصادر لم تستخدم غالبا في الاطروحة المذكورة.
- ٢- قام الملك البريطاني جيمس الثاني بإصدار مرسوم اللاحق عام ١٦٦٢ فرض فيه على كل المسيحيين البريطانيين الانضواء تحت راية الكنيسة الانكليزية، فرفضت عدد من الكنائس ذلك ،فاطلق عليهم المنشقين او المخالفين

<https://en.wikipedia.org/wiki/Nonconformism>

- ٣- بشأن سيرة حياة ارنولد يمكن الرجوع الى عمليين رئيسيين: الاول الدراسة المطولة التي كتبها الأثاري المجري الاصل اورين شتين والتي قدمها للأكاديمية البريطانية تايينا لأرنولد ،تحت عنوان:  
A. Stein, 'Thomas Walker Arnold', Proceedings of the British Academy XVI, 1930, pp.439-474.
- والثانية اعمال المؤتمر الذي عقدته اكاديمية اقبال للاحتفاء بتوماس ارنولد بوصفه استاذا للعلامة الباكستاني محمد اقبال وذلك في عام ١٩٨٨ ،وقد نشرت هذه الأعمال في عدد خاص من الدورية الموسومة (اقبال رويو :نشرية اقبال) في نيسان عام ١٩٩١ .

<http://www.allamaiqbal.com/publications/journals/review/apr91/>

- 4 Arnold Barfield &. Lawrence Barfield," Sir Thomas Arnold ; Family Perspective",

<http://www.allamaiqbal.com/publications/journals/review/apr91/7.htm>

- 5 Stein, "Sir Thomas Arnold", p. 360.

- 6 Barfield, " Sir Thomas Arnold ".

- 7 G. M. Bediake, Primal Religion and the Bible: William Robertson Smith and his Heritage (Sheffield, 1997), pp. 205-6.

- 8 F. C. Burkitt, " William Robertson Smith", The English Historical Review, Vol. 9, No. 36 (Oct., 1894), p. 684

- 9 - اقر ارنولد بدينه لسميث في مقدمة كتابه الدعوة الى الاسلام قائلا :  
"اني مدين للمرحوم البروفيسور روبرتسون سميث بارائه القيمة في عناصر البحث التي كان ينبغي ان يبني عليها تاريخ الكنيسة الافريقية الشمالية وحالة المسيحيين في ظل الحكم الاسلامي ،وان الحزن العميق الذي

احسه علماء الدراسات السامية جميعا على فقدته ليتضاعف في نفسي ، لاعتقادي بان ذلك هو الاعتراف الوحيد الذي استطيع التعبير عنه كفاء مساعدته الكريمة وتشجيعه"  
توماس و.ارنولد، الدعوة الى الاسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون (القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٠) ص ١١ .

10 Christian W. Troll, " SIR Thomas W. Arnold As A Student of Islam". Iqbal Review ,April 1991,Vo.32.No.1

منشور ضمن وقائع الاحتفاء بتوماس ارنولد في نشره اقبال المشار اليها سابقا

<http://www.allamaiqbal.com/publications/journals/review/apr91/>

11 G. Michael Wickens & others " Edward Granville Browne' Encyclopedia Iranica. Vol. IV, Fasc. 5, pp. 483-488.

١٢ احدث ما كتب عن هذا الموضوع المقالة الضافية التي نشرها المستشرق جاك فاردنبورك بعنوان (المستشرقون) في الموسوعة الاسلامية في طبعتها الثانية، ينظر :

Jacques, Waardenburg,. "Mustashrikun." EI2, vol. 7, p.735-753.

13 G. Michael Wickens & Others,"Edward G. Browne" Encyclopedia iranica, Vol. IV, Fasc. 5, pp. 483-488. <http://www.iranicaonline.org/articles/browne-edward-granville>

14 C. A. Bayly, 'The Orient: British Historical Writing about Asia since 1890', in P. Burke (ed.), History and Historians (Oxford University Press, 2001)p.2.

15 Mansour Bonakdarian," Edward G. Browne and the Iranian Constitutional Struggle: From Academic Orientalism to Political Activism" Iranian Studies, Vol. 26, No. 1/2 (Winter - Spring, 1993), pp. 7-31

16 Catherine Watt," Thomas Walker Arnold and the Re-evaluation of Islam Modern Asian Studies, Vol. 36, No. 1 (Feb., 2002), p.16.

17 Thomas Arnold & R.A. Nicolson, A Volume in Oriental Studies ,( Cambridge, Cambridge University Press,1922). p. IV.

18 Stein , Sir Thomas Walker Arnold",p.450.

١٩ رسالة شخصية للباحث من الاستاذ الدكتور ديفيد ليليفيلد للباحث بتاريخ ١٠ تشرين الثاني ٢٠١٠ والدكتور ليليفيلد هو صاحب الدراسة الرائدة عن كلية علي اكرة والموسومة "الجيل الاول في علي اكرة: التضامن الاسلامي في الهند البريطانية الذي طبع في الولايات المتحدة للمرة الاولى عام ١٩٧٨ .

D. Lelyveld, Aligarh's First Generation: Muslim Solidarity in British Indi(Princeton, 1978

20 Watt , " Thomas Arnold", p. 9.

٢١ ينظر في هذا الشأن خطاب السيد احمد خان في حفل افتتاح المدرسة، الذي قال فيه مخاطبا جمهوره من كبار المسؤولين البريطانيين : اذا سعيتم لتحقيق تعليم افضل لمجتمعاتنا فان افضل استراتيجيات ان تجعلوا الهلال والصليب معا، بعض الاصدقاء البريطانيين والهنود يعتقدون ان ذلك مستحيلا ،على اي حال انا اؤمن بان ذلك ممكنا ولهذا اسست المدرسة " ) نقلا عن :

Jawad Anwar, "Sir Syed Ahmed Khan and Aligarh", Muslims Weekly, New York, July 30, 2004, No230

22 C. W. Troll, Seyyid Ahmad Khan :A Reinterpretation of Muslim Theology(New Delhi, 1978).

23 Watt," Thomas Walker Arnold",p.9.

24 Troll,"Sir Thomas Arnold",p1.

25 Barfield, " Sir Thomas Arnold "

26 Troll," Sir Thomas Arnold".

27 Lelyveld, Aligarh's First Generation, p. 247.

28 Watt," Thomas Arnold",p.54

29 Ibid., p.56

30 Ibid.,p.55

31. Ishtiyaq Ahmad Zilli " Allama Shibli and Aligarh Movement"

<http://www.shibliacademy.org/book/export/html/10>

32 Lelyveld, Aligarh's First Generation, p. 247;Watt," Thomas Arnold",pp.54-55.

33 Zilli, " Allama Shibli"p.1

34 Barfield," Thomas Arnold"

35Stein," Sir Thomas Arnold ",p.453.

36 Watt, "Thomas Arnold",p.63.

37 Saeed A. Durrani, "Sir Thomas Arnold and Iqbal"

38 Ibid.,

39Stein, 'Thomas Walker Arnold' p. 466.

٤٠ ينظر: مقدمة الطبعة الثالثة للكتاب التي دمجها المستشرق رينولد نيكلسون في:ارنولد، الدعوة، ص ١٦ .  
٤١ نفسه، ص ١١ .

42 Troll," Sir Thomas Arnold", p.1.

43 C. J. Lyall,"Sir William Muir" JRAS,1905, p.875

٤٤ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم " المستشرق المبشر وليم ميور ودوره في حركة التبشير في الهند"  
مجلة المؤرخ العربي، ١٩٩٧، ع ٥٥، ص ١٢٢ .  
٤٥ ارنولد ، الدعوة ، ص ٣٩٤ .

46 Thomas Arnold," the Study of Arabic" Bulletin of the School of Oriental Studies", vol. I ,p. 114.

47 Muzaffar Iqbal , " Sayyid Ahmad Khan (1232-1316/1817-1898",

٤٨ ارنولد ، الدعوة ، ص ٢٨-٢٩

49 William Muir, The Life of Muhammad,( Edinburgh ,Edinburgh University Press,1924),p.520.

- ٥٠ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم ، "تطور دراسة السيرة النبوية بين وليم ميور وديفيد صموئيل ماركوليوت" مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية ، ٢٠٠٠م، ٢٠، ص٢٦١.
- ٥١ ارنولد ، الدعوة ، ٥٤.
- ٥٢ نفسه ، ص ٥٩-٦٠.
- ٥٣ نفسه ، ص ٦٠-٦١.
- ٥٤ ارنولد ، الدعوة ، ص ٥٠-٥١، هامش ٢.
- ٥٥ ارنولد ، الدعوة ، ص ٤٥٥-٤٥٦.
- ٥٦ رسالة الاستاذ الدكتور ديفيد ليليفيلد الى الباحث بتاريخ ١٠ تشرين الثاني، ٢٠١٠.
- 57 Watt, Thomas Arnold "p. 58.
- ٥٨ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم ، "الاتجاهات التبشيرية لمجلة العالم الاسلامي" مجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية ، ٢٠٠١م ٢٢.
- 59 Duncan Black Macdonald, "Review of the Thomas Arnold, The Preaching of Islam, The American Journal of Theology, Vol. 2, No. 1 (Jan., 1898), p. 129
- 60 Ibid., pp. 129-130
- 61 Ibid., p.134
- 62 H. Hirschfeld, Review of Thomas Arnold, The Preaching of Islam" Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, (Jul., 1899), p. 682
- 63 Ibid., p.685
- 64 Stanley lane-Poole, Review of Thomas Arnold, The Preaching of Islam, The English Historical Review, Vol. 13, No. 52 (Oct., 1898), p. 765
- 65 Ibid., p.765.
- 66 Ibid., pp.765-666.
- 67 F. W. Buckler, Review of Thomas Arnold ,The Preaching of Islam, Church History, Vol. 5, No. 2 (Jun., 1936), p. 185.